من كتب الشرق والغرب

ANDRÉ MALRAUX VICTORIEUX DE LA MORT

ETIEMBLE

أندريه مالرو قاهر الموت

قال والتر بصوت خفيض : «شد ما كنت أخشى الموت فى طفولتى ، وكل عام أدنانى منه ، أدنانى أيضاً من عدم المبالاة به . . . وأظن أن جوبير هو القائل : حين يأتى مساء الحياة فانه يحمل مصباحه معه . »

لم يجب والدى بشئ . كان واثقاً أن والتر يكذب ، وأحس أن الهلع يطفو .

هكذا يكتب كاتب فرنسى فى كتابه *Les noyers de l'Altenburg* وكانت كتبه السابقة تبدو مركزة حول فكرة الهلع من الموت . وكان ولعه بالتغريب l'exotisme وبالحب المريض وبالبطولة تجارب مر بها تباعاً أو فى وقت واحد ليقهر فى نفسه فكرة الموت . « ما الذى يملك علىّ فكرى ككاتب منذ عشر سنوات غير الانسان ؟ » . وهو على صواب فى أن يضع ذلك السؤال الذى يحمل بين طياته إجابته . ذلك بشرط الاننسى أنه يعرف الانسان بأنه « الحيوان الوحيد الذى يدرى أن لابد من الموت » .

قد تبدو مثل هذه الفكرة المستولية عليه غريبة لدى الشعوب التى يوائم إيمانها أو حكمتها بينها وبين طبيعة الحياة . وتقول أيضاً الشخصية التى ينطقها مالرو بآرائه الحالية و بما يحسه و بما يعشقه : « أنا آت من آسيا الوسطى . إن حياة المسلمين هى مجرد مصادفة فى مصير الكون : إنهم لا ينتحرون مطلقا . » وسأذكر عبارة لبرجيه Berger دون أن أبحث إلى أى حد قد تصححها فلسفة الاسلام وعقيدته واجتماعه . المهم فى هذا الصدد هو أن مالرو لا يخفى أمنيته بأن يواجه

---

* هذا المقال كتب خاصة لمجلة « الكاتب المصرى » .

الخوف من الموت ، كما يفعل الأفغان ، بايمان من يثق أنه مقدر أو مكتوب . ومهما ابتعد مالرو عن المسيحية ، ومهما وجد فى العلم والعمل من تلهية تصرفه عن أفكاره القاسية ، فانه قد بقى من رجال الغرب ، ولم يستطع أن يمحو من نفسه ما تأثر به فى طفولته من صور الجحيم وألوان العذاب الذى يلقاه المرء فيه . لقد بقى متأثراً بالدين فى طفولته كما كان أرتور رمبو A. Rimbaud الذى كان يسخط هو أيضاً على الموت : « لا سسوغ مطلقا لأن تسلب منا الحياة بعد إذ منحناها . »

ولكنا نرى فى آخر كتاب اسمه *Les Noyers de l'Atlenburg* — وهو الجزء الأول من قصة سيكون عنوانها العام «الصراع مع الملك» *La lutte avec l'ange* — أن القاص الذى ما زالت تحيا بين جوانحه آراء والده وشهواته (وهذا الوالد هو الذى تسرد الأبواب السابقة قصة حياته) ، رئيس لدبابة وقعت فى حفرة . وتجرى الدبابات الفرنسية فى سهول الفلاندر حول تلك الدبابة المتردية التى ينتظر رجالها رحمة الله : « الصفير . . . لم نعد نحس برءوسنا . انفجرت قذيفة مدفع على بعد ثلاثين متراً خلفنا ، انطفأ النور . جفت أجسادنا ونحن فى انتظار القذيفة الثانية ، لا ننتظر انفجارها ولا صفيرها ، وإنما ننتظر انطلاقها ، وننتظر سماع صوت الموت نفسه . . . لم أعد أنصت إلى شئ : ستأتى القذيفة وشيكا ، لأن الموت داخل السيارة المصفحة . »

ويعد كثير من الهلع ومن الجهد تخرج السيارة المصفحة من الفخ الذى تردت فيه . وكان التعب قد أخذ من رجالها كل مأخذ فتساقطوا على القش فى أحد البيادر ليناموا . وأقبل صباح اليوم التالى : « فى هذا الصباح لا أنظر إلى شئ بعين الغريب . الدجاجات تجول ، كأنها تجهل الحرب . الحيوانات حية على هذه الأرض العجيبة . . . ثم مر قط مروراً مفاجئاً ناعماً ، فاذا بى أستشعر الدهشة لوجود هذا الحيوان . . . فما الذى أصيب بالدهشة فى نفسى ؟ إن شعورى الثابت منذ استيقظت هو شعور الدهشة أن يعيش الكلاب على ظهر هذه الأرض المليئة بالآلات ، فتعمل عمل الكلاب ، وتعيش القطط فتعمل عمل القطط ! »

ومن أعمق أعماق الانسان ، وهو الحيوان الوحيد الذى يدرى أنه فان ، من أعمق أعماق الهلع الانسانى أمام الموت الذى كان بالأمس مؤكداً ، يصبح القاص — وقد أدهشته قوة

الحياة المستمرة كأن لم يحدث شئ من قبل — صيحة خلاصه البطئ : « أيتها الحياة القديمة ما أصلبك وما أعندك ! » وما زال مشفقا من أن ينتصر الفزع ومن أن يسمم ذلك الفرح الذى لم يولد إلا منذ قليل . ولكن كلا : « لست فى هذا الصباح إلا ميلاداً . . . ها هو ذا ضوء النهار يبرز من ظلمات الليل » ، فيرى فلاحين مسنين على مقربة منه لم يهربا من الحرب . إنهما ينظران إلى الموت نظرة تسامح ، « يا له من إغضاء عجيب وانكسار فى طرف العين ينم عن السخرية ! » إن مالرو يدرى الآن « معنى الأساطير القديمة التى تقص قصص المخلوقات التى انتزعت من الموت » ؛ فهو لا يكاد يذكر الهلع .

وما يحمل فى نفسه إلا ما كشفه « من سر بسيط مقدس » . فى ذلك الصباح برئ مالرو من الموت ، وقبل الحياة ، الحياة كلها من الولادة إلى الموت . وربما كان هذا سبب تخلص هذا الجزء الأول من كتابه « صراع مع الملك » مما اعتدنا أن نراه لدى مالرو الثائر على مصير الانسان من فساد فى الأحاسيس والأخيلة التى كان يركزها ، فكأنه كان ينتقم من ذلك المصير . على أن هذا الجزء قد احتفظ بما نعهده فى كتبه السابقة «القاهرون» *Les conquérants* و «المصير الانسانى» *La condition humaine* من توتر وحزن ورومانطيقية عنيفة أحياناً .

حقا إن المرء ليختنق حينما يقرأ الفصل الذى كتبه عن الهجوم بالغاز الخانق . ولكن هذا الفصل قد برئ من التعقيد الذى يلازم الكتابة عن الحب المريض . ولقد عبر روجيه كايوا Caillois عن ذلك خير تعبير إذ قال : « لم يفقد مالرو شيئاً من شدته التى اعتدناها ، ولكن يبدو أنه هو أيضاً قد انضم إلى جانب الحياة وأنه قد سار فى اتجاه الناس . لم يعد ينظر نظرة رضا إلى العنف الفاسد الذى يبدو أنه ضد أبسط نظام فى الكون . لقد أصابه هدوء نبيل ، فأضفى على كتبه عظمة جديرة بالاعجاب لم تصل إليها كتبه السابقة المحمومة الثائرة إلا نادراً . لقد كان يؤمن بفكرة خاطئة انتشرت فى ذلك الزمن ألا وهى أن منابع اللذة الجسدية والقسوة تستمد ماءها من طبقة بعيدة الغور لا شئ بعدها . »

ولقد بقى فى الظاهر متعلقاً بذلك التغريب L'exotisme الذى عده البعض من أهم مميزاته . ولكن أهو تغريب تلك الكتابة عن ثورة تركيا الفتاة واستيلاء الشاب أنور باشا على الحكم

ثم تلك الرحلة السريعة إلى الأفغان ؟ (ومن السهل أن نثبت أن الصينيين فى كتابات مالرو ليسوا صينيين بالمعنى الحقيقى ، وإنما هم صور متعددة لنفس هذا الكاتب .) نعم إن بعض الصفحات تذكرنا بشاتو بريان Chateaubriand مثل : « وعند هبوطه من بامير حيث الابل الضالة تتنادى خلال السحب عند عودتها من رمال الجنوب حيث ترى فى أحراج الشوك الصراصير الضخمة التى ترفع قرونها فوق رءوسها الشبيهة بخوذات الفرسان ، أتى بلداً فى لون رميم العظام . وكان هناك فرسان مهلهلو الثياب ، وكأنهم يحلمون تحت باب من الفخار والخشب . وكانت رءوس الخيل وعظام الأسماك المتحجرة تلمع بين الدور المحجبة كالنساء فى رمال الطريق الذى تكتنفه دور لا نوافذ لها . لا ورقة فى خارجها ولا أثاث فى داخلها ، ليس هناك إلا الجدران والسماء والله . » ولكن مثل هذه الصفحات لا تعتبر بالقياس إلى من يعشق آسيا من الأدب التغريبى exotique .

ولن ندهش إذا استمر مالرو فى بحثه وراء البطولة بعد إذ قهر الخوف المسيحى . فما دام المرء يخشى الموت فان السبيل الأوحد لتقبله هو أن يخلق المرء موته ، وأن يجعله أروع ما يمكن وأسهل ما يمكن تجرعه . كانت البطولة حاجة فأصبحت شجاعة بعد أن هزم الهلع .

ومنذ انفصل مالرو رسميا عن أولئك الشيوعيين الذين كانوا يشتبهون فيه دائماً ويتهمونه حيناً بأنه من أتباع تروتسكى ، وحيناً آخر بالفردية الفوضوية أو بأنه من أنصار الفكر ، فان منشوراتهم الرسمية — وكانت قد سكتت عنه حتى ذلك الوقت — أخذت تفسر انفصاله بدوافع كل منها أشد نكراً من الآخر . لقد قال مالرو : إنه يجب ألا نحكم على الناس بما يبدو لنا من جانبهم الخسيس . أما أنا وقد عرفته وأحببته وأعجبت به منذ خمسة عشر عاماً فانى لم أدهش قط حين رأيته يرأس فى سنة ١٩٤٥ الائتلاف الذى كان ينتظم وقتئذ عدة جمعيات يسارية معادية لوسائل الشيوعيين ولمذهبهم الأخلاقى . وكنت أحس دائماً أن لديه عنهم أشياء لا يبديها . وكيف لا يستطيع من عقد الصلح بينه وبين الحياة ألا يتقبل القصد والاعتدال ؟ وإنا لنعرف أنه قد رضى أن يخدم الجنرال دى جول فكان وزيراً للأخبار فى وزارته ، ونعلم أيضاً أنه اليوم وجاك سوستيل

J. Soustelle يمثلان حركة التجمع الشعبى فى فرنسا Rassemblement populaire وأولئك الذين تقلقهم مثل هذه الجماعة السياسية التى لم تنتظم حتى اليوم إلا أعداء طبقة العمال سيترددون رغم ذلك فى اتهام مثل هذه الحركة بالفاشية . ذلك لأن رجلا مثل مالرو قد رضى أن يمنح اسمه وسمعته لها . إنه ليعترف برغبته « القوية فى أن يترك لنفسه أثراً على الأرض » (وهذا دليل على أنه لم يبرأ تماماً من داء الفناء) . ولكن أليس مجده الأدبى كافياً ليترك له أثرا على الأرض ! إنه ليؤمن بأن « الوقت متأخر جدا اليوم ليحاول المرء التأثير فى شئ ما » ويؤمن كذلك « بأنه يجب منذ الآن أن يحاول المرء التأثير فى شخص ما » (هل ذلك الشخص هو دى جول؟)

ولنذكر — إلى أن يثبت عكس ذلك — أن مالرو قد كان دائماً إلى جانب المظلومين ضد الظالمين ، وأنه قد قاتل فرنكو حين تطوع فى الطيران الجمهورى ، وأنه نظم بفرنسا حركة مقاومة مهمة قبل أن يرأس فرقة الألزاس واللورين . وبدلا من أن أتهمه بأنه صنيعة قلم الجاسوسية الانجليزية Intelligence Service أو بأنه متآمر مع جماعة التروتسكيين الفاشيين ، فانى أفضل — إلى أن يثبت عكس ذلك — أن أعده رجلا قد قبل الحياة وأنه قد قبل أيضاً :

ذلك الجدول القليل الغور الذى أسيئت سمعته ، ألا وهو : الموت . »

ايتيامبل

نقلها عن الفرنسية مصطفى كامل فوده